حوار الأستاذ الدكتور/
عبداللطيف بوعزيزي
رئيس جامعة الزيتونة

يحاوره: د. محمد الريوش - أ. يحيى عبد اللطيف

Dialogues: with Prof.
Dr.Abdellatif Bouazizi
President of Ez-zitouna University

by: Dr. Mohammed Eriouiche - a. Yahya Abdul Latif

نرحب بكم حضرة الأستاذ الدكتور عبد اللطيف البوعزيزي في دورية نماء لعلوم الوحي والدراسات الإنسانية في هذا الحوار الذي نتطرق فيه إلى بعض المواضيع المرتبطة بالتعليم الجامعي والمكانة الدولية والتاريخية للجامعات العربية.

١- يلاحظ المتابع للتاريخ الإسلامي وجود جامعات للتعليم العالي تعد مراكز روحية وتعليمية ذات أثر حضاري لا ينكره أحد؛ ونذكر من هذه الجامعات جامعة القرويين وجامعة الأزهر وجامعة الزيتونة... وبصفتكم رئيسًا لجامعة الزيتونة ما تقييمكم لتدريس الدين والثقافة الإسلامية في الوقت الراهن؟ وما هي شروط المنافسة الحضارية في عصر الحداثة؟

تجدر الإشارة عند الحديث عن الجامعة الزيتونية إلى أنّه منذ تأسيسها في مطالع القرن الأول للهجرة إلى اليوم ظلت على امتداد ١٤ قرنًا من نشاطها المعرفي المتصل بلا انقطاع مدرسة علم وسلوك، وقلعة حصينة للغة العربية يشهد بذلك تاريخها المكتوب، وكذلك تاريخها المعماري.

لقد طبع جامع الزيتونة شخصية الشعب التونسي بطابع خاص قائم على التسامح والاعتدال والتفتّح، وعلى الاتصال المباشر بمهبط الوحي: مكة والمدينة المنورة، وعلى الموازنة بين متطلبات الدنيا والتحضير للآخرة. ونحاول في الزمن الراهن وفي سياق المحافظة على السند العلمي التونسي الموصول، والتفاعل مع المناهج الحديثة وبرامج التدريس المتطورة أنْ نقدم درسًا شرعيًا يوائم بين الأصالة والمعاصرة، ويجعل من الدين في كماله ووضوحه ويسره سلوكًا يوميًا للتونسي عامة ولطلبة الزيتونة من مختلف القارات على وجه الخصوص، بمعنى ثقافة حياة لهم جميعًا.

ما بشأن المنافسة الحضارية في عصر الحداثة فلعله لم يبق لنا نحن العرب في ظل التقدم المذهل للغرب الذي يسير في ابتكاراته ونجاحاته وفتوحاته العلمية والتكنولوجية المطردة بسرعة مكوكية إلا أن نسابقه في المجالين الأخلاقي والروحي، وهذا ما نبّه إليه منذ عقود مضت المفكّر اللامع روجي غارودي الذي دعا إلى اختراع مستقبل مشترك للبشرية يسوده التفاهم المتبادل بين الحضارة الغربية وبين حضارات الشرق...مستقبل جديد يتخلى فيه الغربيون عن عقدة الاستعلاء ليستفيدوا من المسلمين والصينيين في مستوى الحكمة والروحانيات، ويستعيد خلاله المسلمون ثقتهم في أنفسهم، وحماستهم على الإضافة النوعية لحضارة عصرنا التي طغى عليها الجانب المادي.

٢- يرتكز التعليم في الجامعات سالفة الذكر على العلوم الشرعية واللغوية والأدبية والتاريخية؛ فما تصوركم لتحديث مناهج التعليم وتطوير آليات التدريس في هذه الجامعات؟

إنّ قدر الجامعات الإسلامية جميعًا وفي طليعتها الزيتونة أن تكون في قلب التجديد، وأن تمثّل المحرّك الأساس لكل إصلاح. فإنّ ذلك من جوهر الإسلام، وجامعتنا تُعلّم الإسلام، ذلك هدفها وذلك قدرها منذ انبعاثها. ولا نغفل هنا عن فكرة إسلامية ذات صلة بحديثنا هي فكرة وجود مجدّد على رأس كل مائة عام يجدّد للمسلمين دينهم. وتبعًا لذلك فإنّه منذ العقدين الأولين من القرن العشرين للميلاد تعالى صوت الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور داعيًا إلى المسارعة بتجديد التعليم في العالمين العربي والإسلامي، وإلى إصلاح الزيتونة ضمن ذلك، الأمر الذي نجد تفاصيله الدقيقة والرائعة في كتابه المخصص لإصلاح التعليم العربي الإسلامي: «أليس الصبح بقريب». ثم بادر بتطبيق رؤيته الإصلاحية تلك حالما بُسطت يده في النهوض بجامع الزيتونة الذي صار شيخه الأكبر، وقد نوّه بذلك الشيخ محمد عبده الذي رأى حلمه يتجسد في الزيتونة دون الأزهر، رغم أنه كان يردّد: «إما أن يُصلح الأزهر أو أن يسقط». كما أشاد عميد الأدب العربي طه حسين خلال زيارته لجامع الزيتونة سنة ١٩٥٨م بإصلاحات ابن عاشور في هذه الجامعة العريقة وذلك في مقالة نشرها للعموم بجريدة الجمهورية المصرية، داعيًا الأزهر إلى الاقتداء بالزيتونة. ودارت الأيام وبقيت الزيتونة بتونس والقرويين بفاس والأزهر بالقاهرة منارات علمية تُعدّ بحقّ مرفع رأس العرب والمسلمين في العراقة وريادة الفكر الديني المتجدّد.

لقد ظلّت الروح واحدة في هذه الجامعات، لكن تنوّعت مضامينها وتجدّدت

مناهجها وطرق التدريس بها. اليوم نحن نعتمد عند الضرورة الدرس عن بُعد، كما نستعين بجهاز العرض (الداتشو)، ونوزّع الدروس الرقمية، ونستقبل البحوث الطلابية عبر الإيميل والماسينجر، ونقدم الدروس والفروض وإصلاحاتها عبر التلفزات، وننزل الدروس المتلفزة في الإنترنت. أليس هذا من مظاهر الانخراط في تطورات العصر؟ والشيء نفسه في طريقة تقسيم الدرس إلى نظري وتطبيقي، والاستعانة بالأساليب الكمية والكيفية، وبالنظريات التعليمية الحديثة السلوكية والنفسية المعرفية والبنائية والاجتماعية والتجريبية...

٣- ما تقويمكم لجهود الزيتونيين المعاصرين في مجال العلوم الشرعية، وكيف ترون آفاق الدرس الشرعي اليوم في جامعة الزيتونة؟

إنّ مؤلّفات أساتذة الزيتونة تشهد لهم بالنجاعة في بحوثهم ودراساتهم وانفتاحها على محيطها الاجتماعي والاقتصادي وحتى السياسي والثقافي والصحي والبيئي، لا سيما أنّها مرتبطة بالقضايا الحارقة لعصرهم وتحولاته، كما أنّها تحاول الإجابة عن مختلف الأسئلة الحضارية والمجتمعية الجديدة المطروحة أمامهم.

وإذا كانت العلوم الإسلامية ذات أصول وفروع، وذات مقاصد ووسائل، فإنّه في إطار تنويرها للعقول وجعلها مواكبة للعصر في سياق جمعها بين الثابت والمتحوّل قد أخذت بحظّ وافر من علوم العصر الاجتماعية والإنسانية، التي لا ريب في تكاملها مع العلوم الدينية مضمونيًا؛ إذ تندرج ضمن وسائلها شكليًا ومنهجيًا، وتتمحور مجتمعة حول الإنسان بصفته هدف التنمية الدينية والمعرفية وأداتها.

٤- يرى البعض ضرورة الفصل بين تدريس العلوم الإسلامية بوصفها علومًا ذات منحى عقلي محض وبين تدريس التدين بوصفه سلوكًا؟ فما هو مسلك الزيتونة تجاه هذا الأمر؟

الدين واحد في الاعتقاد والآداب والمعاملات والعبادات مع اختلافات غير جوهرية سببها الفهم الحرّ للمتدينين، وهو ما نعرّفه بالفهم المذهبي، وهو فهم تقليدي أو اجتهادي داخل المذهب. وفي جانب متّصل أشير إلى أنّنا لا نفرّق بين الإيمان والعمل والنية، لكننا نفرّق بين الدين والتدين؛ فالأوّل مقدّس؛ لأنّه صادر عن ربّ العباد، بينما الثاني هو تطبيقات بشرية للدين، وهي ليست مقدسة أو خالدة، تختلف بسبب التأثر بعادات وأعراف وسلوكيات أهل المدن والبلدان المتباعدة واختلاف ذهنياتهم ونفسياتهم ومناخهم وظروفهم الطبيعية.

٥- كثيرًا ما نسمع عن مسألة التكامل بين العلوم والمعارف؛ من بينها التوافق بين الروحانية والعلم، وبين الفقه والمقاصد، وبين القانون والأخلاق...إلخ، كيف تنظرون لهذه المسألة؟ وهل من اقتراحات عملية ترونها فاعلة بوسعها السير قُدمًا بمسار التعليم في الوطن العربي؟ وفي إطار التجسير بين العلوم ما مدى حضور العلوم الإنسانية في مقررات التدريس وتطوير البحث العلمي في جامعة الزيتونة حاضرًا ومستقبلًا؟

الزيتونة هي حاملة لواء الفكر المقاصدي، ومن أعلامها في هذا الاختصاص كما تعلمون الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الذي فسّر في كتابه «مقاصد الشريعة الإسلامية» أنّ سبب تحجّر العقل المسلم يرجع إلى ربط «الأحكام بالعلل التي تستنبط من الألفاظ لا المعاني». وجعل من علم المقاصد أداة لتفكيك التعصب المذهبي، وأداة فضلى في أيدي المسلمين «يرجعون إليها للفصل في اختلافاتهم شأنهم في ذلك شأن أهل العلوم العقلية».

أمّا الأخلاق فإنّها مفتاح كل نجاح، وهي إن كانت من مواد التدريس فدعني أقولها بحروف غليظة أو بصوت عال: إنّ الأخلاق لا تُدرّس بقدر ما تُزرع عن طريق الاقتداء وبواسطة التأثر بممارسات الآخر المثالي. فالرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم المبعوث ليتمّم مكارم الأخلاق شهد له رب العزّة برفعة الأخلاق من خلال قوله تعالى: «وإنّك لعلى خلق عظيم» (القلم: ٤)، ودعا جل جلاله المسلمين إلى التأسي به عبر قوله: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا» (الأحزاب: ٢١)، فالأخلاق ليست فطرية إنّما هي كسبية، تُكتسب بالتأسّي، وإنّما الأمم كما قال الشاعر أحمد شوقي: «الأخلاق ما بقيت... فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا... صلاح أمرك للأخلاق مرجعه... فقوّم النفس بالأخلاق تستقم... إذا أصيب القوم في الأخلاق... فأقم عليهم مأتمًا وعويلًا».

وبشأن العلوم الإنسانية فإنّها تترجم الاستجابة لقول الله تعالى: «وفي أنفسكم أفلا تبصرون» (الذاريات: ٢١). ولهذا قد تكون العلوم الإنسانية تعبيرًا عن المهارات النقدية والتحليلية التي قد نعاين ما يشبهها في علوم الدين الإسلامي التي لا تتضاد مع السؤال، وإنّما تشجع عليه وتنمو به وتتغذى معرفيا على نتائجه. فالإيمان في الإسلام لا يرهب من العقل ولا يحجّر اعتماد أسلوب النقاش والجدال. والقرآن هو بلا شكّ أول علم يدرس الإنسان منذ ١٤ قرن ونصف القرن، وقد أفرد له سورة كاملة وبمنتهى الوضوح عنوانها «الإنسان».

٦- عندما يتعلق الأمر بالبحث العلمي بوصفه أحد أهم ثمار الدرس الجامعي الملاحظ اليوم تدني مستوى البحوث

العلمية في جامعاتنا العربية مقارنة بالجامعات الغربية؟ أين يكمن الخلل برأيكم وما هي سُبل تجاوزه؟ وماذا عن مسارات البحث التي تشجعها جامعة الزيتونة؟

لا أشاطر الرأي الذي يحكم على البحوث العلمية في الجامعات العربية بالتدني في مقابل نظيراتها الغربية. ذلك أنّه إذا كانت شروط العلم واحدة، فلا بدّ أن تكون أيضا النتائج وبشكل حتمي واحدة، باعتبار أنّها أيضا نتائج علمية مثل شروطها العلمية المتبعة منذ البداية، فخاتمة الشيء نظير بدايته. لكن لعلّ مكمن الاختلاف -إذا كانت المناهج المطبقة هي ذاتها- نقدره ليس في المجالات الإنسانية والاجتماعية وإنّما في جانب الاختراعات والابتكارات والاكتشافات. ففي هذا المجال لا وجه لآي مقارنة بين مخابر بحثنا ومخابر بحثهم، وبين إضافاتهم اليومية للحضارة البشرية وبين إسهاماتنا السنوية الطفيفة.

٧- في ظل الظروف التي يعيشها العالم تبنت مجموعة من الكليات والجامعات عالميا ومن بينها أكاديمية نماء للعلوم الإسلامية والإنسانية -التابعة لمركز نماء للبحوث والدراسات- مسالك ومناهج وتقنيات جديدة للتدريس والتواصل مع الطلاب؟ فكيف تقومون هذه التجارب؟

وكيف كان تجاوب جامعتكم مع تلكم الظروف الاستثنائية؟

أثمّن حرصكم على تأمين العلم لطلابه عن طريق التكنولوجيات الحديثة في ظل الحجر الصحي الشامل ومقتضيات التباعد الجسدي للتوقي من جائحة كورونا والحدّ من سرعة انتشارها، واجتهادكم في تنويع محامل التدريس وطرقه الحديثة. أمّا في تونس فقد انخرطت مؤسسات التعليم بمختلف مراحلها وبالخصوص منها المرحلة العليا في سياسة الدولة لضمان سلامة الشعب وفي الآن نفسه عدم حرمان الأجيال الجديدة من حقها في الدراسة والارتقاء في سلم التحصيل العلمي. ولذلك سخّرت الدولة كل الإمكانات التكوينية والتكنولوجية والتشريعات المؤقتة الملائمة بهدف ضمان تكافؤ الفرص بين كافة الطلبة.

٨- من جهة أخرى وبصفتكم رئيسًا لجامعة الزيتونة ماذا عن المكانة الدولية للجامعات العربية، وجودة مخرجات التعليم العالي والبحث العلمي التي تقدمها، ومدى اتساقها مع منظور التحولات الثقافية والاجتماعية و ا لسيا سية ؟

لا يمكن أن نأخذ مثل تلك الجامعات نموذجًا يحتذى، ولا مؤسسات قيس جودة الجامعات وترتيبها مرجعا لنا، فالمسألة

متصلة بحجم المشاركات المالية المرصودة سنويًا كمعالم انخراط في مؤسسات التصنيف الدولي، وأيضا بحجم الميزانيات التي ترصدها الدول المتقدمة وعناصرها الصالحة من أهل المبرات للبحث العلمي وللجامعات. لكن أشير هنا إلى أنّه على الرغم من ضعف ميزانية البحث العلمي في الدول العربية والإسلامية، وعلى الرغم من تدني تصنيف جامعاتنا العربية والإسلامية؛ فإنّ أدمغتنا المهاجرة هي التي تصنع المعجزات في مخابر بحث كبرى الشركات الغربية ووكالات الفضاء، وتساهم بالتالي في خدمة البشرية وتطوير حياتها فوق الأرض.

٩- ما هي رؤيتكم حول آثار الجامعات تدريسًا وبحثًا على المجال الجمعي والانبعاث الحضاري؟

إنّ الدارس للعلوم الشرعية في قلاعها التاريخية المجيدة المذكورة في سؤالك الأول لا بدّ أن يتمكّن أوّلًا من مبدأ العمل بما يعلم، وثانيًا من الترابط الوثيق بين العلوم الأساسية في الإسلام وبين علومها الآلية المساعدة، وثالثًا أن يستوعب التكامل المعرفي الذي لا فكاك فيه بين العلوم الشرعية وبين العلوم الكونية. فهذان النوعان من العلوم يؤلفان العلوم الإسلامية وجناحا تحليق الحضارة الإسلامية في سماء العالمية خلال العصر الوسيط. ولينظر الواحد منا في تراجم علماء عصر النهضة الإسلامية حتى ينتبه في يسر إلى أنّ المسلم العالم في ذلك الزمان كان حافظا للقرآن، مرتلًا ومفسّرًا له، حافظًا للسنّة النبوية وعارفًا بعلوم الحديث وكتبه رواية ودراية، كما كان ملمًا بالطب والصيدلة وماهرًا في الرياضيات وعلوم الفلك، ومستوعبًا للفلسفة والكيمياء، وكاتبًا ملهمًا في الشعر والأدب، وحاذقًا للغة العربية... فإذا انتهى عصر العلماء الموسوعيين وحلّ في محلهم علماء التخصّص الدقيق، وإذا انفكّت الرابطة الوثيقة بين علماء الشرع وعلوم الكون على أرض الواقع، فليس لنا في أدنى المساعي من خيار إلا تنمية الوعي بأهمية توسيع فهمنا لأهداف العلوم الشرعية في حياتنا اليومية ومدى صلتها بدائرة التطوير والإصلاح والتجديد في أبعادها الشاملة؛ ذلك أنّه لا يمكن رفع صروح الحضارة إلا على أرضية تربوية أخلاقية وتعليمية متينة. ولا شكّ أيضًا في أنّ التعليم الديني هو الرافعة الأخلاقية لكل مجتمع حرّ، كما أنّ البحث الديني ما لم ينهض بالدنيا فإنّه عقيم.